



من أجل هذا المفقود

عبدالمعز الفاضل

دار الأحياء
إسكندرية



مُحْفَوظٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

رقم الإيداع ٣٢٣٤ / ٢٠٠٣

التزقيم الدولي

977-331-971-1



من أجل هذا طلقتك

حاتمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ سعدِ الطائِيّ من أشهرِ أجوادِ العربِ وكرمائهم في الجاهليّة، يُعرف حاتم الطائِي بسيدِ الكرماءِ والأجوادِ. مات نحو سنة ٤٥ قبل الهجرة.

كان كرمُ حاتمٍ يزعجُ زوجته «ماوية» فقد كانت تحسبُ كرمه مذمّةً وإسرافاً، وتظنُّ أنَّ البخلَ والشحَّ الذي يوفر المال هو أفضلُ من الكرم والسخاء.

ولكي نتعرّفَ على كرمِ حاتمِ الطائِيّ أشهرِ أجوادِ العربِ في الجاهليّة نذكر مشاهدَ كثيرةً منها، أنَّه كان يملك فرساً تتحدث بها العربُ كلُّها في العدو والسرعة والرشاقة والجمال، حتى إنَّ خبراء الخيل آنذاك قالوا فيها شعراً، فما كان من مجموعة من فرسان العرب الذين يعرفون قيمة الخيل الذي لا تُقدَّرُ بمالٍ إلَّا أن حملوا أكياساً من الذهب والدراهم، وأضمروا النيةَ على أن يدفعوا أيَّ مبلغٍ وأيَّ ثمنٍ مهما كان ضخماً في هذه الفرس العربية الأصيلة التي يملكها حاتم الطائِي أشهرِ كرماء العرب.

اقترب موكبُ الضيوفِ من بيتِ حاتمِ الطائي فرحَّبَ بهم، وكعادته في إكرام الضيف فقد تلفتَ حوله فلم يجدْ ما يقدمُه لضيفه من طعامٍ فقد نَفَدَتْ غنمُه، ولا يملك من الإبل شيئاً، فما كان منه إلاَّ أن ذبح فرسه وأعدَّها طعاماً شهياً وقدمه لضيوفه، ولما أقبل الضيوفُ على الطعام تحدث أحدُهم عن فرسِ حاتم يريدونها بأيِّ ثمن.

فاجاب حاتم: ودِدْتُ لو كانت لكم بغيرِ ثمنٍ ولكني صنعتها طعاماً لكم.

أصابَت الدهشةُ ضيوفَ حاتم ولكنهم أدركوا على الفور أنه حاتم الطائي أشهرُ أجوادِ العربِ وأكرمهم وأسخاهم.

مروءة حاتم الطائي:

وكان حاتم الطائي رجلاً صاحباً مروءةٍ وكرم، وكان يقصده من العربِ الشرفاءُ والشعراءُ الشجعان، وكان هناك رجلٌ يُقال له عبد قيس بن حفاف البرجُومي، جاء إلى حاتم الطائي في دماءٍ حملها عن قومه يجب أن يدفع

عنها ديةً لأعدائهم، ولكن قومه أحلفوا وعدهم ولم يقوموا بواجبهم، فأسلموه فيها، وأوقعوه في مأزقها حتى عجز عن دفعها؛ فقال: والله لآتين من يحملها عني، وكان عبد قيس هذا شريفاً شاعراً شجاعاً، فقصد إلى حاتم الطائي، فلما قدم عليه، قال: إنه يا كريم العرب وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها - أكل بعضهم على بعض - وإني حملتها في مالي وأهلي، فقدمت مالي وأخرت أهلي، وكنت يا كريم العرب الأمل الباقي بعد الله، فإن تحملتها فرب حق قد قضيته عني، وهم قد كفيتني، فإن منعك من السداد عني مانع لم أذم يومك، ولم أياس من غدك، وأنشأ شعراً يرجوه فيه أن يسدد عنه هذا الدين، وقال له:

حملت دماءً للبراجم جمّة ۞ ۞ فجئتك لما أسلمتني البراجم
وقالوا سفاهاً: لم حملت دماءنا ۞ ۞ فقلت لهم: يكفي الحمالة حاتم^(١)

فقال له حاتم: إني كنت لأحب أن يأتيني مثلك من قومك، فخذ هذا نصيبي من الغارة على بني تميم فخذها وافراً، فهو مائتا بعير سوى بنيتها وفصالها (صغارها) فإن كان

(١) «ذيل الأمازي» (٢٢)، و«المط» (١٢).

يكفي ما عليك من دينٍ وحمالةٍ فذلك خير وإن لم تكف
فسوف أكملها لك . ولا أحبُّ أن تروِّعَ قومك بأموالهم .

دهشَ عبد قيس البرجمي من كثرة عطاء حاتم حتى قال
مندهشاً: أيّ بغير دفعته إليّ، وليس ذنبه في صاحبه فأنت
منه برئ، فأعطاه حاتم الإبل وزاده مائة بغيرٍ، فأخذها
وانصرف راجعاً إلى قومه قانعاً، وقد كان متأكداً من جود
حاتم الطائي أشهر العرب كرمًا وقال حاتم في ذلك :

أتاني البرجُمي أبو حويل ◻ ◻ ◻ لهم في حمالته طويل .
فقلت له: خذ المربع منها^(١) ◻ ◻ ◻ فإني لست أرضى بالقليل
فلا منّ عليك بها، فإني ◻ ◻ ◻ رأيت المن يُزرى بالجسميل .

وكانت ماوية زوجة حاتم تئن في نفسها دون أن تبوحَ
وذلك من كرم زوجها وترك ماوية نفسها تتحدثُ عن كرمِ
حاتم الطائي زوجها .

تقول ماوية: أصابتنا سنةٌ اقشعرت لها الأرض، وأغبرَّ
أفقُ السماءِ وراحت الإبلُ تمشي ضامرةً من شدة الجوع

(١) المربع: ما يأخذه الرئيس من الغنمة خاصة، دون أصحابها وهو ربع الغنمة .

وضنتِ المراضعُ على أولادِها لشحَّ اللبن في ثديها، فما تسيل بقطرةٍ تُرضعُ بها صغارها، وشحَّ المالُ والطعامُ في هذه السنة، وإيقناً بالهلاكِ، فو الله بينما نحن في ليلة باردة، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تصايح أطفالنا وصبيتناً جوعاً، عبد الله ابن حاتم وعدي، وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين عبد الله وعدي، وقمت أنا إلى الصبية سفانة بنت حاتم وأقبل يعلّلني بالحديث ليواسيني، فعرفت ما يريدُ، فتناومت وأدعيت أن النومَ يداخل جفوني.

فلما مضى الليل وغربت النجوم، إذا شيء رفع ستر الخيمة التي نحن فيها ثم عاد، فقال حاتم: من هذا؟ فسمع صوت جارتنا، قالت: جارتك فلانة، أتيتك من عند صبية يكون ويتعاونون عواء الذئب من الجوع، فما وجدت غيرك يا حاتم، وما وجدتُ معولاً إلاً عليك يا أبا عدي. فقال: أحضريهم على الفور، فقد اطعمك الله واشبعك وإياهم! فهرولت المرأةً سريعاً لتحضر أولادها، فأقبلت تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربعة، كأنها نعامةٌ حولها أولادها.

فقام حاتم إلى فرسه فطعن رقبتها بسكين فخرت مذبوحة، ثم كشطه عن جلدها وسلخه، ودفع السكين إلى المرأة جارته فقال لها: هيا أعدّي الطعام.

تقول ماوية زوجة حاتم: فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحي يطوف على الناس جميعاً بأبياتهم بيتاً بيتاً ورجلاً رجلاً وطفلاً طفلاً، فيقول: هبوا أيها القوم، عليكم بالنار فاجتمعوا، والتفّع في ثوبه، وجلس في ناحية ينظر إلينا، فوالله ما ذاق من اللحم قطعة صغيرة، على الرغم من أنه أحوج إليه منّا لشدة ما أصابه من الجوع الشديد، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلاّ عظم وحافر، أي قضوا على اللحم كله وأكلوه.

فأنشأ حاتم يقول لامراته التي تلومه على إنفاق المال:

مهلاً نوار أقلي اللوم والعزلاً ◻◻◻ ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة ◻◻◻ إن الجواد يرى في ماله سبلاً
هنا يقول لامراته واسمها نوار ألاّ تلومه على إنفاق
المال، فالبخيل يرى للمال طريقاً واحداً وهو كنزه وعدم
إنفاقه وحرمان نفسه والناس من الرزق الذي أرسله الله

له، أمّا الجوادُ الكريم فيرى في ماله طُرُقًا كثيرةً هي إعانة المحتاج وإكرام الضيف والإنفاق في وجوه الخير.

عاشت ماويةً زمنًا طويلًا مع حاتم الطائي فقد أحبها وأحبته، لأنها كانت من أحسن النساء وأجمل النساء - وظلت عشرة الزوجيةً طويلةً، لا ترى فيها ماويةً غير شيء واحد يتكرر وهو للحق شيءٌ مثير وجميل يملأ الدنيا حركةً وجمالاً وسخاءً وجودًا، هذا الشيء هو مال حاتم الطائي الذي يأتيه بالآلاف الإبل بل بعشرات الآلاف من الإبل والغنم والخيول، وكل صنوف الأموال في عصره قبل الإسلام بعشرات السنين، وكان هذا المال يأتي بكثرة شديدة تجعل ماوية زوجة حاتم في عزٍّ ما بعده عزٌّ وسعادة ما بعدها سعادة، إلا أنها كانت تجد مصارفَ هذا المال كثيرةً فيصبح حاتم الطائي في الطائيين ويمسي أفقرهم من كثرة إنفاقه فتحزن ماويةً وتتجه لحاتم باللوم الشديد.

وتقول له: أنت مهلكُ أموالنا لا تبقي لنفسك ولأبنائك الثلاثة شيئًا فابنك عدي وابنك عبد الله، وابنتك سفانة تمرُّ

بهم أيامٌ لا يجدون ما يسدُّ رمقهم من الجوع، ثم ما تفتأ
تنتهي من حديثها حتى ينهمر المالُ الحلالُ كالطر على حاتم
فتسكت حائرةً بين السعادة والحزن لمجيء وضياع المال.

عودة إلى قصة زواج حاتمة من ماوية:

على الرغم من كل ما ذكرناه عن ماوية من كرهٍ لسخاءِ
حاتم وإنفاقه وكرمه فلنعد إلى قصة زواجها من حاتم
لنجد أن الكرم هو مهرها المشروط - وهي عربية من بنات
ملوك اليمن، كانت ذاتَ جمال وكمال، وحَسَبٍ ومالٍ،
فالت على نفسها ألا تتزوج إلا من كريمٍ، ولئن خطبها
لئيم لتجدعن أنفه فتحشاها الناس حتى أسرع إليها زيد
الخليل وكان كريمًا، وحاتم الطائي وهو أشهر كرماء العرب
وأوس بن حارثة وكلهم من طيء «طائيون» - فارتحلوا
إليها. فلما دخلوا عليها، قالت: مرحبًا بكم، ما كنتم
زُورًا، فما الذي جاء بكم؟

قالوا: جئنا زورًا خطابًا، قالت: أكفأ كرام.

ثم رحبتُ بهم وانزلتهم، وفرقتهم فجعلت لكل واحد منهم مكاناً ينزل فيه وزادت في ضيافتهم وإكرامهم.

فلما كان اليوم الثاني بعثت بعض جواريتها، في زي فقيرةٍ سائلةٍ تطلب منهم مالاً كل واحدٍ على حدةٍ فبدأت بزيد الخليل، فأعطاها نصف ما حمل من مال. ثم ذهبت لأوس، فأعطاها نصف ما حمل من مال. ثم ذهبت لحاتم فأعطاها كل ما كان في يده من مال وحمل إليها جميع ما حمل إليه.

فلما كان اليوم الثالث دخلوا عليها، فقالت: ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره فوصف زيد نفسه بأنه صاحب المعارك الكبرى بينه وبين العرب وذكر الدماء والقتل.

وقال أوس بن حارثة: إنك لتعلمين أنا أكرمُ أحساباً، وأشهر أفعالاً من أن نصف أنفسنا لك، ثم ذكر شعراً قيل فيه.

أما حاتم الطائي: فقد تحدث عن صفة الكرم وعلاقتها
بالمال، فقال شعراً جاء فيه:

أماوي إن المال غاد ورائحُ ❦❦❦ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

بين لها حاتم أن المال يزول ويأتي، يجيء ويذهب،
ولا يبقى منه إلا الأحاديث وذكر ما يفعل به، فإن كان
كرماً أثنى على صاحبه وأن كان بخلاً كرهه الناس، أي
كرهوا صاحب المال.

تزوج حاتم ماوية، وقلنا إنها كانت من أحسن
النساء، فلبثت عنده زمناً، ولكنها وجدت ابن عم حاتم
الطائي وهو مالك الطائي يقول لها: يا ماوية ما تصنعين
بحاتم؟ فوالله لئن وجد شيئاً ليتلفنه، ولئن لم يجد ليتلفن
ولئن مات ليتركن ولده عالاً على قومه. ثم سكت قليلاً
وماوية لا تعلق.

ثم عاد فبادر ماوية قائلاً: طلقي حاتمًا وأنا أتزوج بك،
فأنا خير لك منه، وأكثر مالاً منه وأنا أمسك عليك
وعلى ولدك.

فقات ماوية مالك: صدقت، إنه كذلك.

وظل مالك يراودها في أمر طلاقها من حاتم إلى أن
طلَّقتُ حاتمًا.

كان النساء أو بعضهن يُطلقن الرجال في الجاهلية،
وكان طلاقهن أنهنَّ يحولن أبواب خيامهن إلى جهةٍ
أخرى، فإن كان البابُ إلى المشرقِ جعلنهُ إلى المغرب؛
وإن كان البابُ قِبَلَ اليمينِ جعلنهُ قِبَلَ الشَّامِ، فإذا رأى
ذلك الرجل علم أنها قد طَلَّقَتْهُ.

فأتى حاتم فوجدها قد حوَّلت باب الخباء، فقال لابنه:
يا عديُّ، ما ترى أمك؟ ما عدا عليها؟ - كانت أمارات
الحزن تبدو على عديّ.

فأجاب أباه قائلاً: لا أدري! غير أنها غيَّرت باب الخباء،
وكانه لم يفظن لما قال.

ثم أخذ حاتم ابنه عديّ وترك الدار وهبط به بطن وادٍ
بن الأودية.

وكانت دار حاتم الطائي معروفةً للناس ينزلون عنده
ويأكلون من طعامه .

وجاء قوم ممن يعرفون هذا البيت وصاحبه الكريم
فنزلوا على باب الخباء (البيت) كما كانوا ينزلون فتوافى
عددهم خمسين رجلاً، حتى ضاقت بهم ماوية ذرعاً.
ففكرت ماذا تفعل؟

فقالت تجاريتها: إذهبي إلى مالك، فقولي له: إن أضيافاً
لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بناتٍ
أي: إبل وغنم ولبن نسقيهم ونطعمهم .

وقالت تجاريتها: أنظري إلى جبينه وفمه، فإن أجابك
بالمعروف فاقبلي منه وإن ضرب بلحيته على زوره،
فارجعي ودعيه .

فلما أتت الجارية مالكا الذي طلقها من حاتم
ليتزوجها وجدته يربط إناء اللبن في حسمه ومتوسداً به!!

فايقظته وأبلغته رسالة ماوية؛ وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكانك فأدخل يده في رأسه، وضربَ بلحيته على زوره بخلاً وشحاً.

وقال لها: اقربي ماوية السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتم الطائي من أجله، فما عندي لبن أسقيه لأحد، وما عندي ناقة غزيرة باللحم، وما عندي شيء يكفي أضياف حاتم! فرجعت الجارية فأخبرت ماوية بما رأت من مالك، واعلمتها بما قاله لها.

فقالت ماوية للجارية: ويلك! إتي حاتم فقولي له: إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا، ولم يعلموا بمكانك، فأرسل إلينا بشاه أو ناقة ننحرها ونطعمهم بها، وبلبن نسقهم، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك وبعدها يذهبوا إليك!!.

فأتت الجارية حاتمًا فصاحت به، فقال حاتم: لبيك قريباً دعوت!

فَقَالَتْ: إِنَّ مَاوِيَّةَ تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ؛ وَتَقُولُ لَكَ: إِنَّ
أَضْيَافَكَ قَدْ نَزَلُوا بِنَا اللَّيْلَةَ، فَأَرْسَلُ إِلَيْهِمْ بِنَاقَةَ نَحْرِهَا
وَلَبَنٌ نَسْقُهُمْ.

فَقَالَ: نَعَمْ وَأَبِي! ثُمَّ قَامَ إِلَى الْإِبِلِ فَأَطْلَقَ نَاقَتَيْنِ
كَبِيرَتَيْنِ ثُمَّ صَاحَ بِهِمَا حَتَّى أَتَى دَارَ مَاوِيَّةَ، فَذَبَحَهُمَا.
فَجَعَلَتْ مَاوِيَّةُ تَصِيحُ، وَتَقُولُ: هَذَا الَّذِي طَلَقْتِكَ فِيهِ!
تَتْرَكَ وَلَدَكَ وَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ!.

